أثرُ المجاز في تشكيل المصطلح النحوي [رسالة الحـدود النحويـة لابـن الجبراني (ت ٦٢٨هـ) مثالاً]

أ.م.د. غادة غازي عبد المجيـد
جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الإنسانية
ghadaghada338@yahoo.com

الملخص:

تُعدُّ المصطلحات نواة أساسية في كل علم من العلوم ، وهي المعبِّر الصادق عن تطور العلوم واستقلالها واستقرارها، وقد سلك النحو العربي مسالك عدة في سبيل تحصيل مصطلحاته. فكان أن أفاد من الموروث اللغوي بجعله مرتكزاً مهماً في تشكيل مصطلحاته، وكان المجاز في مقدمة هذه المرتكزات، وهو عنصر فعّال في تحقيق التطور الدلالي للفظة، إذ تستعين به اللغة في تطوير ذاتها من ذاتها لتكون قادرة على مواكبة وقع الحياة المتنامي، فجاء هذا البحث ليسلّط الضوء على أحد مصادر تشكيل المصطلح النحوي – ولعله أهمها – وهو المجاز، الذي بواسطته تنتقل اللفظة من معناها القديم إلى معنى جديد يكتسب صفة الاصطلاح ويتخصص به، في منهج قوامه عرض المعنى اللغوي للفظة ثم المعنى الاصطلاحي والبحث عن وجوه التشابه والتقارب بين المعنيين.

The Effect of the Figure of Etimology on the Formation of syntactic Idiom (A Letter of the syntactic Limitation by Ibn AL-Jabrany (628H) as an Example)

Asst. Prof. Dr. Ghadah Ghazi Abd-el-Majeed
University of Diyala - College of Education for Humanities
ghadaghada338@yahoo.com

Abstract :

The idioms are considered as al basic rucleus in every science , and they are true indicators for the development of sciences in terms of their employment and stability . The Arabic syntax ' indulges itself ' in a number of ways to get its idioms . It made use of the inherited linguistic literature .

Which is considered an important basis for the formation of its idioms . The figure of etimology was one of the basics of Arabic syntax and it was an influential element in the achievement of the semantic development of the word since the language makes use of it to develop its structures spontaneorsly in order to go along with the needs of the developing life . There fore , their research sheds light on the figure of etimology on as one of the resources in the formation of syntactic idiom through which the word's original meaning is transferred into a new one to gain the features of the idiom . This is done in an approache to present the linguistic meaning of the word with its idiomatic meaning . Then the similarities between the aforementioned meanings should be looked for as we have done in their research .

المقدمة:

والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين. أما بعد؛ فالنحو علمٌ لا يختلف عن سائر العلوم البشرية التي تحتاج إلى أدوات فكرية تعبّر عن مضامينه ومفهوماته وتؤصل أسسه ، ولعل المصطلح أهمُّ تلك الأدوات أو هي أهمها على الإطلاق ، فالمصطلحات هي مداخل العلوم وبها تفتح مستغلقات الأفكار وبها يُجتاز غموض النصوص وصولاً إلى فهم وإدراك وتبّصر .

وقد حاز المصطلح النحوي منذ نشأته المقرونة حتماً بنشأة النحو بمكانة عالية من العناية والاهتمام ، فكان عند القدماء هويّة فكرية لانتماء النحوي إلى مذهب دون آخر ، كما كان ساحة وارفة الظلال لمن أراد أن يدلو دلوه بالجديد ، فكانت المصطلحات هي الأقدر لتقبّل التجديد واستيعابه كما كانت – أيضاً – ملمحاً بارزاً من ملامح تطور النحو واستقراره .

ولم تقلَّ هذه العناية عند المحدثين بل زادت وتوسعت توسّعاً لافتاً للنظر حتى أُفردت له المؤلَّفات وكتبت فيه البحوث والدراسات[١] ، غير أن هذه الدراسات كانت في جُلِّها تبحث عن إشكاليات المصطلح النحوي من حيث تنوعه وعدم استقراره وعدم دقته أحياناً ، وغموضه أحياناً أخرى، وفي هذا القول الكثير ، ولسنا هنا بصدد إعادة ما قيل أو إعادة النظر فيه ، وإنما يأتي هذا البحث ليقرأ المصطلح النحوي قراءة أخرى من منظور جديد لعله يفتح الباب – قابلاً – على دراسات وبحوث أخرى في الميدان نفسه .

ومدار هذا البحث قائم على تحرّي بعض المرجعيات اللغوية أو اللفظية والدلالية للمصطلح النحوي ، فهو يجيب عن تساؤل مفاده : كيف يتشكّل المصطلح النحوي ؟ ، ومن أين يأتي ؟ ، وما أصله؟ وهذه السؤالات تستمد مادتها المعرفية من جهود علمية ودراسات وأبحاث أنجزها الدارسون في التنظير لأسس علم المصطلح بصرف النظر عن الحقول المعرفية التي تنتمي إليها المصطلحات ، ومن الممكن اختيار مصطلحات أي حقل معرفي وإخضاعه للنظر اللغوي ، لتجد تلك التنظيرات صداها على مستوى التطبيق .

وفي ضوء ما تقدم نجد الباحثين في علم المصطلح يصنِّفون عملية تشكيل المصطلحات في ضوء توليد الألفاظ الجديدة والمعاني الجديدة ، فولادة مصطلح جديد يعني ولادة لفظ جديد أو ولادة استعمال جديد للفظ قديم ، فالتوليد إذن يكون على مستويي اللفظ والمعنى ، فإما أن نولَّد ألفاظاً جديدة أو معاني جديدة تكتسب – فيما بعد – صفة الاصطلاح في ضوء ما حدّده الدكتور أحمد مطلوب للفظة من شروط ليصح أن تكون مصطلحاً[٢] .

وهذا التوليد إنما يستند على قدرة اللغات على إحياء ذاتها من داخلها ، مستنجدة بما فيها من وسائل توليدية – إن صحّ التعبير – ولأن العربية تحفل بتلك الوسائل ، فقد أجمع الباحثون في

ميدان علم المصطلح – أويكادون – على أن وسائل توليد المصطلح أو تشكلّه هي نفسها وسائل توليد الألفاظ عامة ، وهي متنوعة بين[٣] المجاز والاشتقاق والنحت والتركيب والاقتراض اللغوي بصورتيه : المعرّب والدخيل ، فهذه هي وسائل تشكيل المصطلحات في العربية ، وهي تتفاوت من حيث الأهمية والفاعلية والأثر في بناء المصطلح ، فبعضها له اليد الطولى في توليد المصطلح وبعضها الآخر يكاد يختفي أثره في ذلك ، وهذا يعتمد أساساً على الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه المصطلح ، ففي العلوم الإنسانية ذات الطابع الفكري مثل دراسة اللغات أو التأريخ، نلاحظ أن الاشتقاق والمجاز وأحياناً التركيب ، ينالون الحظ الأوفر في تشكيل المصطلحات، أما العلوم التطبيقية مثل الفيزياء والكيمياء والطب فنلاحظ أن المجاز والاشتقاق ينحسر أثرهما لتنال مولّدات أخرى النصيب الأوفر، ولعل الاقتراض اللغوي يقف في مقدمتها .

وعليه فإنه يبرز في الميدان النحوي كل من المجاز والاشتقاق حاضرين في تشكيل المصطلح النحوي، وهذا التحقيق إنما جاء في ضوء استقراء المصطلحات التي درسها البحث، ولعل إعمال الفكر وتوسعة النظر يوصلنا إلى نتيجة عامة لا تختلف عن التحقيق المتقدم؛ لأن النحو عربي فهو بطبيعة الحال لا يلجأ إلى الاقتراض من اللغات الأخرى ليستقي منه مصطلحات تعبّر عن مفهوماته ليبرز كل من المجاز والاشتقاق في أول الأسس المعتمدة في بناء المصطلح النحوي . ولأنه من غير الممكن دراسة الوسيلتين معاً – أعني المجاز والاشتقاق – لأن كلاً منهما في حاجة إلى بحث مستقل ، فقد وقع الاختيار على المجاز تحديداً ، لأن التوليد فيه يكون على مستوى الدلالة والاستعمال ، فهو يستمد مادته اللفظية من الخزين اللغوي الموروث فهو الأكثر لصوقاً بهذا الموروث والأقدر على توظيفه في تشكيل المصطلح ، ثم إكساب الألفاظ القديمة دلالات جديدة في ظل تحولّها إلى مصطلحات ، مما قد يخلق مشتركات لفظية أو مترادفات ، وفي ضوئه يمكن أن تبحث أهم الإشكاليات التي عانى منها المصطلح النحوي قديماً وحديثاً ألا وهي تعدد مصطلحات الفكرة الواحدة أو العكس[٤] . ولأن المصطلحات النحوية كثيرة جداً، ولا يمكن للبحث أن يستقصيها جميعاً ، فقد اكتفى بأمثلة منها يحقق غايته على أن تكون هذه الأمثلة مستقاة من إحدى كتب الحدود النحوية تحديداً؛ لأنها تقدم صورة اصطلاحية متكاملة – أو تكاد – للمصطلحات النحوية.

وقد اختار البحث رسالة (الحدود النحوية) لابن الجبراني لاستقاء المصطلحات منه وذلك؛ لأنه ((أقدم نص وصل إلينا في الحدود النحوية ورسالة ابن الجبراني (مصطلحات وحدوداً) مخصصة في النحو والصرف مجردة عن غيرهما من الفنون ... وبذلك فقد تفرّد ابن الجبراني بأن جعل الحدود النحوية علماً له مثل هذه البداية))[٥] .

ورسالة ابن الجبراني قدمت حدوداً نحوية لتسعين مصطلحاً في منهج تعليمي غلب عليه طابع الاختصار واللغة الواضحة المباشرة التي لا تحتمل التأويل والشرح ، وكان أحياناً لا يكتفي بحدّ واحد للمصطلح الواحد بل يذكر أكثر من حد قد يصل إلى ثلاثة حدود[٦] .

وفي ضوء هذه المعطيات اختير عنوان البحث ، الذي سينتظم في محورين الأول بعنوان : المجاز بوصفه مولِّداً للمصطلح ، والثاني بعنوان : مصطلحات نحوية بأثر المجاز، وسيعمد البحث إلى اختيار أمثلة لهذه المصطلحات وتحليلها لغوياً في ضوء ما تقدم.

المحور الأول/ المجاز مولِّداً للمصطلح:

يقول ابن منظور (ت ٧١١هـ) في تعريف (المجاز) لغة بأنه : ((من جَوَز) جوزتُ الطريقَ وجاز الموضع جَوْزاً وجؤوزاً ومجازاً وجاوزَه جوازاً وأجاز غيرَه وجازَه سار فيه وسلَكه ... وجُزتُ الطريقَ قطعته ، والمجازُ الموضعُ ...))[٧] .

أما اصطلاحاً فيعرّف بأنه : وضع اللفظ في غير ما وضع له مع وجود قرينة مانعة من إرادة الوضع الأصلي[٨] .

فالمجاز بوصفه مصطلحاً لغوياً دالاً على الانتقال أو التحرك إنما أفاد من المعنى اللغوي للفظة ، فاللفظة بفعل المجاز تجتاز وضعها الأصلي إلى وضع آخر جديد .

وللمجاز فضلٌ كبير في إثراء اللغة من جوانب مختلفة ، فهو في العُرف البلاغي يُعدُّ مرتكزاً مهماً من مرتكزات تحقيق جماليات النص بما يمنح السياق والتراكيب فضاءات دلالية تتخطى الحدود اللفظية المعروفة بما يجعل المنجز الأدبي نصاً إبداعياً ، ومن جانب آخر فإن المجاز يمثل عنصراً أساسياً في ظاهرة التطور الدلالي[٩] ، بوصفه منتجاً أو مولِّداً لمعاني ودلالات جديدة تتيح للفظة حرية الحركة من معنى يمكن وصفه بالقدم – بالنظر إلى وجوده في المعجم – إلى معنى جديد تمليه حاجة اللغة إلى التطور والإحياء المبتعث من داخلها ، فالمجاز يتيح إعادة إحياء التراث اللغوي بما يكسب الألفاظ من صبغة دلالية جديدة تجعلها تواكب تطور الحياة بمظاهرها المختلفة ، وتمدُّ اللغة بالقوة اللازمة لاستيعاب هذا التطور والتعبير عنه ، وهو في سبيل ذلك يحشد كل طاقاته وأدواته المتاحة من أجل تحقيق سمة تعالق الدلالات القديمة والجديدة في حزمة من العلاقات التي اجتهد المختصون – قديماً وحديثاً – في تأطيرها والتمثيل لها .

والمجاز بوصفه مولِّداً دلالياً على مستوى الألفاظ أولاً ثم اكتسابها صفة الاصطلاح ثانياً ، فإنه كما يرى عبد السلام المسدي يُعدُّ أداة اللغة لإنجاز التحول الدلالي الذي يتحرك بموجبه الدال فينزاح عن مدلول قديم ليلابس مدلولاً قائماً أو مستحدثاً ، فيصبح المجاز جسر العبور تمتطيه الدوال بين الحقول المفهومية[١٠] ، فالمجاز على ذلك أداة اللغة للتطور الدلالي وأداة المجاز في ذلك هو التحول أو التطور الذي حدّده ستيفن أولمن في صورتين ، إذ قد ينضاف مدلول جديد إلى

كلمة قديمة أو كلمة جديدة إلى مدلول قديم[١١] ، وتظهر أهمية المجاز في هذا التطور بأنه يمثل القانون الذي ينظم هذا التغير ((كيلا تفقد الدلالة الفرع صلتها بالدلالة الأصل ... وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين هذين المفهومين ، وهي الصلة بين الشيء وأداته))[١٢] .

وما ينظم هذه الصلة ويؤطرها ويضمن سلامتها وصحتها حزمة من العلاقات المجازية التي تمد سبيلاً بين القديم والجديد من المعاني .

فهذه العلاقات بمختلف أنواعها تُعدُّ ((معياراً أولياً في استقامة التوليدات المجازية))[١٣]، ومحرِّكاً أساسياً وراء تحقيقها و((تضاف إلى هذه العلاقات عناصر أخرى تبدو أساسية في تحقيق التوليدات المجازية ، ولعل منها ما تفرضه الكلمة المستعملة مجازاً من علائق تركيبية تقيمها مع الوحدات المعجمية المكونة للجملة))[١٤] .

وتنتظم العلاقات بين المعاني في دائرة المجاز في إطارين ، فهي إما علاقة مشابهة أو ما يسمى بـ (الاستعارة) ، إذ تستعمل الكلمة في غير ما وضعت له من معنى لعلاقة مشابهة بين المعنين القديم والجديد ، وإما أن يكون المجاز مرسلاً فتكون العلاقة غير المشابهة ، وهي تأتي في صور عدة ، منها : السببية أو الجزئية أو الكلية أو المحلية وغيرها[١٥] .

ويعدُّ المجاز القائم على علاقات المشابهة هو المعوَّل عليه في نمو اللغة وإثرائها وهو أكثر الجوانب الواقعة في دائرة الاهتمام اللغوي عندما يدرس التغير والتطور الدلالي[١٦] ، وهذا لا يعني أن المجاز المرسل لم يكن له نصيب في التوليد الدلالي ، بل
يأتي أحياناً بأثر فاعل في هذا الاتجاه[١٧] .

وجدير بالذكر أن التطور الدلالي المحصَّل بفعل المجاز إنما يستند في اكتمال صورته النهائية إلى ركيزتين :

الأولى تمثلها تلك العلاقات الرابطة بين المعاني القديمة والجديدة – التي تقدم ذكرها – ، والركيزة الثانية تمثل عملية الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد ، فهذا الانتقال هو الصورة الفعلية للتطور ، وهو يتخذ من العلاقات المجازية ممراً تعبر بوساطته اللفظة من المعنى الأول إلى المعنى الثاني .

وقد لحظ الباحثون أن هذا الانتقال يمكن تحديده أو تنميطه ، فهو – على الأغلب – على أربع صور، إذ قد تنتقل اللفظة من معنى عام إلى معنى خاص تحت مسمّى (تخصيص الدلالة)، أو يحدث العكس فتنتقل اللفظة من معنى خاص إلى معنى عام تحت مسمّى (تعميم الدلالة)، أو قد ترتقي دلالتها أو تنحط تحت مسمّى (رقي الدلالة أو انحطاطها)، وهذا إنما يحدث بفعل عوامل أخرى ، فضلاً عن العوامل اللغوية ، إذ يكون للعوامل الاجتماعية والثقافية – وأحياناً – الدينية أثرها في رقي الدلالة أو انحطاطها[١٨] .

ويغلب على هذه الأنماط تخصيص المعنى العام ، الذي استعانت به العربية كثيراً في سبيل التوليد الدلالي ولاسيما بعد الثورة الفكرية والقيمية التي شهدها المجتمع العربي بعد الإسلام[١٩] .

فأصبح للتطور الدلالي الحاصل بفعل المجاز مكانته التي لا يستهان بها ، بوصفهِ أداة تستعين به اللغة لمواكبة وقع الحياة المتنامي، حتى يغدو التواضع المجازي مساوياً في قوته وثباته للمواضعة الحقيقية ، وهذا ما يقرره الواقع اللغوي المتداول، الذي تنعقد عليه – أساساً – فاعلية المجاز ونجاحه وقوته في تحقيق التطور الدلالي، وما يدعم هذه القوة أن المجاز في سبيل تصييره واقعاً لغوياً إنما يستمد مادته من الإرث اللغوي، إذ يُعدُّ إحياء الألفاظ القديمة أو المهملة أو المماتة أهم مصادره ، فهذه الألفاظ تحيا في ميدان
التداول من جديد حينما تشحن بدلالات لم تكن لها في أصل وضعها اللغوي[٢٠] .

فالمجاز – على ما تقدم ، يُعدُّ وسيلة من وسائل تطوير اللغة من داخلها بتوظيف ما تمتلكه هذه اللغة من طاقات تعبيرية على مستوى الألفاظ ثم التراكيب ، لذلك فإن علوم العربية وفي مقدمتها (النحو) استعان بالمجاز كثيراً لإكساب الألفاظ القديمة دلالات اصطلاحية نحوية جديدة من أجل بناء منظومة فكرية متكاملة الملامح نواتها الأهم ، هو المصطلح النحوي ، بوصفه – أي المصطلح – مفتاحاً لكل العلوم كما يقول الخوارزمي (ت حوالي ٣٨٠هـ)[٢١] .

المحور الثاني/ مصطلحات نحوية بأثر المجاز:

تقدم أن ابن الجبراني وضع حدوداً لتسعين مصطلحاً نحوياً، ومساحة البحث المحدودة لا تكفي لتحليل جميع هذه المصطلحات مع التنبيه على أنه ليس المجاز وحده المؤثر في تشكيل مصطلحات ابن الجبراني؛ لأنه تناول مصطلحات شُكّلت بأثر الاشتقاق ، من ذلك مثلاً: مصطلحات (العامل ، والمعرب ، والمبني ، والمبتدأ ، والفاعل ، والمفعول به ...)[٢٢] وغيرها، وتناول بعض المصطلحات المركبة مثل : (ما لم يُسمَ فاعله ، وخبر المبتدأ ، وجمع العلة، والاسم المنصرف)[٢٣] وغيرها .

أما مصطلحاته التي تشكلت بأثر المجاز؛ فكانت هي الأكثر، نذكر منها: (النحو، والحرف، والبناء، والرفع، والتمييز، والقسم وغيرها)[٢٤] .

ونظراً إلى هذه الكثرة فإن البحث اختار أمثلة منها ليخضعها إلى النظر اللغوي مراعين في ذلك أن تكون الأمثلة المختارة قادرة على إعطاء صورة واقية عن أثر المجاز في تشكيل المصطلح النحوي في حدود ما تطيقه صفحات البحث المحدودة، مع التنبيه على أن الغاية من البحث ليس استقصاء جميع المصطلحات بل الغاية الأساسية هي الكشف عن فاعلية المجاز في توليد المصطلح النحوي ، وفي ضوء ذلك اختيرت

المصطلحات الآتية لتحليلها لغوياً ، وهي على النحو الآتي مرتبة هجائياً :

١. مصطلح (الجَزْم):

وردت لفظة (جَزْم) في المعجم بمعنى القطع –غالباً– قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ((جَزَمْتُ ما بيني وبينه، قطعتُه، وجَزْمُ اليمين قطعُها البتة... وقلم جَزْمٌ مستوي القطر لا حرف له ...))[٢٥]، و((جَزَمُه يجزمُهُ قطعه ، واليمين : أمضاها ، والأمرَ قطعه قطعاً لا عودة فيه ، والحرفَ أسكنه وعليه : سكت ... والجزم في الخط : قطعٌ عن تسوية الحروف والقلم لا حرفَ له ، وهذا الخطُ المؤلَّف من حروف المعجم لأنه جُزِم ، أي قُطِع عن خط حمير ...))[٢٦] .

فمعنى (القطع) في ضوء ما تقدم– هو الغالب في لفظة (الجزم) ، وأما ما يُقطع، فهي اليمين والصلةُ على ما ذكر الزمخشري ، فهذا في اللغة .

أما في الاصطلاح النحوي؛ فقد عرّفه ابن الجبراني ، قائلاً : ((الجَزْمُ حذف حركة أو حرف من آخر الفعل بعامل الجزم))[٢٧] ، ويظهر جليّاً أن المفهوم الاصطلاحي لهذه اللفظة قد استعير من المفهوم اللغوي ، ففي المفهومين (اللغوي والاصطلاحي) جاءت اللفظة بمعنى (القطع) ، مع ملاحظة أن معنى (قطع الشيء) في اللغة قد تخصص في الاصطلاح بقطع (الحركة أو الحرف من المجزوم) ، فمعنى اللفظة انتقل من عموم (قطع الشيء) إلى خصوص (قطع الحركة أو الحرف) وتحولت اللفظة بفعل هذا الانتقال إلى مصطلح نحوي ، وعلاقة المشابهة بين المعنيين هو (اقتطاع جزء ما) ، ولعل في اختيار لفظة (الجَزْم) دقة في التعبير عن هذه الحالة الإعرابية الناتجة عن دخول عوامل الجزم على الفعل المضارع ، وهي دقة لا تؤديها لفظة أخرى ، ولعل في كلام ابن منظور دليلاً واضحاً على ذلك ، إذ قال : ((إنما سُمِّي الجزم في النحو جزماً لأن الجزم في كلام العرب القطع ، أفعل ذلك جزماً ، فكأنه قُطع الإعرابُ عن الحرف ...))[٢٨] ، فهذا ملحظ دقيق رصده ابن منظور في تلمُّس علاقة التشابه بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة (الجزم) ، وهي علاقة انتظمت في ظل المجاز وسمحت للفظة بالانتقال من معنى عام (لغوي) إلى معنى خاص (اصطلاحي) .

٢. مصطلح (الظرف) :

جاءت لفظة (الظرف) في المعجمات بمعنى : الكياسة وذكاء القلب : ((ظَرُف فيه ظرْفٌ وظَرافة : كيْسٌ وذكاء))[٢٩] ، وجاء بمعنى : ((الظريف البليغ من الكلام ... والظريف الحَسَنُ الوجه واللسان ... والظُرفُ في اللسان البلاغةُ وفي الوجه الحُسْنُ وفي القلب الذكاء والحلاوة في العينين ...))[٣٠] ، ومن معانيها أيضاً (الوعاء) : ((... وهو الوعاء ، كأنه جعل الظَّريف وعاءً للأدب ومكارم الأخلاق))[٣١] .

فالظرف لغة ، هو الحسن في الوجه واللسان والذكاء في القلب والبراعة والكياسة ، وهو الوعاء للشيء ، وفي انتقال اللفظة من الدلالة اللغوية إلى الاصطلاحية إنما اختصت بمعنى واحد من هذه المعاني لتكتسب من خلالها صفة الاصطلاح النحوي ، لذلك فإن التعريف الاصطلاحي للفظة لم يبتعد كثيراً عن فضاء التعريف اللغوي لها ، إذ حدّه ابن الجبراني بقوله : ((حَدُّ الظرف ، وهو المفعول فيه : كل اسم من أسماء الزمان والمكان يراد فيه معنى (في) وليست في لفظه . وقيل : ما كان وعاءً للشيء زماناً أو مكاناً))[٣٢] .

فيظهر أن ثمة صلة بين المعنى اللغوي لـ (الظرف) والمعنى الاصطلاحي ، إذ استعار الاصطلاح النحوي معنى (الوعاء) مجازاً ليستعمله في الدلالة على احتواء طائفة من أصناف الكلام العربي للأحداث المعبَّر عنها بلفظ الأفعال وما يشبهها في الجملة، فكما أن الوعاء يحتوي الشيء فكذلك الظروف من أمثال (أمام، وخلف، وقُدّام) تحتوي الأحداث وتتضمنها فيصُّح أن تُفسَّر بمعنى (في)؛ لأنها ظرفية تدل على الاحتواء، فالانتقال من دلالة (الظرف) على (الوعاء) في العرف اللغوي إلى دلالة الاحتواء والتضمن في المعنى الاصطلاحي حدث بفعل المجاز، والعلاقة بين المعنين هي المشابهة من حيث إن الوعاء يحتوي الشيء فكذلك الظرف يحتوي الحدث الذي يرد في سياقه.

والجدير بالذكر أن بعض أصحاب المعجمات قد تنبّه على ذلك، وجعل المعنى الاصطلاحي لـ(الظرف) جزءً من معناها اللغوي ، يقول ابن منظور: ((الإبريق ظرف لما فيه . الليث : والصفات في الكلام التي تكون مواضع لغيرها تسمى ظروفاً، من نحو : أمام وقدّام وأشباه ذلك ...))[٣٣] ، وهذا النص يكشف عن أمور، منها : أن المعنى الاصطلاحي اختلط بالمعنى اللغوي من غير أن توضع لذلك محدِّدات منهجية ، وربما يُبرّر ذلك بسعة ثقافة صاحب المعجم اللغوية ورغبته في الإحاطة بكل دلالات هذه اللفظة أو تلك ، ومن جهة أخرى فإن نص ابن منظور المتقدم يشير حقيقة إلى أن الدلالة الاصطلاحية لـ (الظرف) أصبحت من الشهرة الكبيرة والتداول الواسع ما جعلها جزءً من معناها اللغوي ، وكأن هذه الانتقال المجازي للدلالة أصبح لصيقاً باللفظة . حتى غدا معنى من معانيها الحقيقية ، فكأن المجاز – هنا – أصبح حقيقة، وليس أدلَّ على ذلك من أن ابن منظور وضع المعنى الاصطلاحي إلى جانب المعنى اللغوي لها، وليس الأمر بمستغرب في نظام العربية ، إذ قد يشتهر المعنى المجازي للفظة حتى يصبح كأنه معناها الحقيقي ، ويبقى تداول المعنى المجازي وسعته هو المسبب لغلبة المجاز على الحقيقة.

٣. مصطلح (العطف):

العطف في اللغة هو الثني والميلان ، قال الراغب الاصبهاني (ت ٤٢٥هـ): ((العطف يقال في الشيء إذا ثُنّي أحدُ طرفيه إلى الآخر ، كعطف الغصن والوسادة والحبل ...))[٣٤] ، و((ظبية عاطفٌ تعطفُ جيدها إذا ربَضَتْ ... وثنى عن عطفه ، أعرض))[٣٥] ، وتعطَّفَ عليه ((وصَلَه وبَرَّه ، وتعطَّف على رَحمِهِ رقَّ لها ... ويُقال عَطَفْتُ رأسَ العودِ فأنعطفَ ، أي : حنيته فانحنى ، وعطفتُ أي مِلْتُ ... ومنعطفُ الوادي منعرجُه ومنحناه ...))[٣٦] ، وعطَفَ يعطفُ عليه ((أي مالَ وأشفقَ))[٣٧] .

أما في الاصطلاح النحوي فقد حدّه ابن الجبراني ، قائلاً : ((اشتراك شيئين في تأثير عامل بتوسط آلة هي عوض عن العامل . وقيل ردُّ ثانٍ على أول بواسطة حرف العطف))[٣٨] .

ويظهر من التعريف الاصطلاحي المتقدم أن اختيار لفظة (عَطْف) للتعبير عن علاقة الاشتراك أو الردّ– كما عبرّ عنها ابن الجبراني – التي تحدث بوساطة حروف العطف ، إنما جاء في ظل ما تحتمله اللفظة – العطف – من معنى لغوي يعبّر عن هذا الاشتراك ، فدلالة (العطف) على الثني والميلان يمكن تصورّها في العلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ذلك أن المعطوف يُردُّ على المعطوف عليه باشتراكه مع الأخير في الحكم النحوي من غير تكراره بوساطة حرف العطف ، وهو بذلك كأنه يميل أو ينحني على المعطوف عليه ، فالمعنى الاصطلاحي لـ(العطف) له صلة وثيقة بمعناها اللغوي ، فالعطف في اللغة علاقة تقوم بين معطوف ومعطوف عليه في صفة الإشفاق أو الترحم أو الميلان ، وفي المفهوم النحوي علاقة تقع بين اسمين أو فعلين بوساطة عددٍ من الحروف في صفة الاشتراك في أثر العامل ، وهذا التشابه هو الذي سوّغ استعارة اللفظة بما تحمله من معنى الثني والميلان لاكتسابها صفة اصطلاحية فيما بعد ، وهذا الانتقال من المفهوم اللغوي إلى الاصطلاحي إنما حدث بفعل المجاز وبعلاقة المشابهة المشار إليها آنفاً، مع تخصيص دلالة اللفظة بمعنى (الاشتراك أو الردّ).

إن الأمثلة التي قدّمها البحث كشفت بصورة جلية عن أثر المجاز وفاعليته في إكساب اللفظة صفتها الاصطلاحية ، وذلك حين يتحول المجاز بما يحمله من علاقات المشابهة إلى جسر تعبر من خلاله اللفظة من معناها اللغوي إلى معناها الاصطلاحي ، وقد يكتسب المعنى الاصطلاحي للفظة – المحصَّل بفعل المجاز – قوة في ميدان التداول اللغوي فيغدو– أي المعنى الاصطلاحي – وجهاً من وجوه المعنى اللغوي في صورة تظهر تفوق المجاز على الحقيقة ، إذ يصبح المجاز حقيقة أو يكاد في العرف اللغوي .

الخاتمة:

ومن خلال ما تم اعتماده من منهج متقدم قوامه الابتداء بعرض معاني اللفظة في المعجم ثم معناها الاصطلاحي والكشف عن مواطن التشابه والتقارب بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي نستطيع القول : إن المجاز في ضوء هذا المنهج يمكن أن يكون فيصلاً في تحديد دقة هذا المصطلح أو ذاك من حيث تعبيره عن المعنى الاصطلاحي ، بما قد يسهم في وضع محدّدات لكل مصطلح في ضوء المفهومين اللغوي والاصطلاحي بما يوصل إلى حل إشكالية تعدد مصطلحات الباب النحوي الواحد المتمثل في التعبير عن الفكرة بأكثر من مصطلح أو ما يُعرف بترادف المصطلح النحوي الذي يتقاطع مع ما يجب توافره في المصطلح العلمي من خصائص أو شروط ليصحّ أن يكون مصطلحاً ، فمن أهم شروط صحة المصطلح، أن يتخصص مصطلح واحد بمفهوم واحد ، والعكس أيضاً أي أن يعبِّر عن المفهوم الواحد مصطلح واحد فقط[٣٩] ، وهذا الشرط افتقرت إليه بعض المصطلحات النحوية عبر التأريخ النحوي ، فتعددت مصطلحات الفكرة الواحدة من مثل: (النعت والصفة، والجر والخفض، والتمييز والتفسير) وغيرها كثير مما يحفل به التراث النحوي ، ولعل في إخضاع هذه المصطلحات إلى النظر اللغوي وتحليلها في ضوء معانيها المعجمية والاصطلاحية ورصد العلاقات فيما بينها معياراً موضوعياً في الأخذ بأدق المصطلحات وترك ما دونها ، وهذا النظر في حاجة إلى دراسة مستقلة تقوم على استقصاء شامل للمصطلحات المترادفة والوقوف على ما لها من دلالات في بطون المعجمات ، لتكتمل الصورتان – اللغوية والاصطلاحية – ليصح بعد ذلك – الإقرار بأدق المصطلحات .

وقد تقدم بأن المجاز هو أحد مؤكّدات المصطلح النحوي ، ولكنه ليس الوحيد بل هناك مولِّدات أخرى مثل : الاشتقاق والتركيب ، ويمكن لدراسة أخرى أن تتناول هذه الظواهر من حيث قيمتها وفاعليتها في تشكيل المصطلح النحوي ، من خلال دراسة كل ظاهرة على حدة على غرار هذا البحث .

الهوامش:

(١) ينظر في ذلك : المصطلح النحوي في دراسات المحدثين ، أحمد خليل حبيب ، دكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة ديالى ، ٢٠١٥م .

(٢) ينظر : بحوث مصطلحية ، ٩ .

(٣) ينظر : علم المصطلح ، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية ، د.علي القاسمي ٣٥٥ وما بعدها ، والأسس اللغوية لعلم المصطلح ، د.محمود فهمي حجازي ٣٥ وما بعدها .

(٤) ينظر : علم المصطلح ، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية : ٣٧٢ .

(٥) رسالة الحدود النحوية لابن الجبراني ، مقدمة التحقيق : ٢٢١ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه (مقدمة التحقيق) ؛ ٢٢١ .

(٧) لسان العرب (مادة جوز) : مج٢/٢٦٠ .

(٨) ينظر : دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٦٦ .

(٩) ينظر : علم الدلالة ، دراسة نظرية وتطبيقية : فريد عوض حيدر ، ٦٩ .

(١٠) ينظر : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ٨٢ .

(١١) ينظر : دور الكلمة في اللغة : ٨٩–٩٤ ، وعلم المصطلح ، أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية : ٣٥٧ .

(١٢) علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية ، د.ممدوح خسارة : ٢٢٥ .

(١٣) ينظر : نسقية التوليد الدلالي في المجاز ، رائد فريد طافش (بحث) : ٤٧٣ .

(١٤) ينظر : المصدر نفسه ، ٤٧٤ .

(١٥) ينظر : علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية ، ٢٢٣ .

(١٦) ينظر : المصدر نفسه : ٢٢٤–٢٢٦ .

(١٧) ينظر : المصدر نفسه : ٢٢٤ .

(١٨) ينظر : علم المصطلح ، أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية : ٣٦٢–٣٦٣ .

(١٩) ينظر : علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية ، ٢٢٤ .

(٢٠) ينظر : المصدر نفسه ، ٢٣٠ .

(٢١) ينظر : مفاتيح العلوم ، ٧ .

(٢٢) ينظر : رسالة الحدود النحوية ، ٢٢٥ وما بعدها .

(٢٣) ينظر : رسالة الحدود النحوية ، ٢٢٧ وما بعدها .

(٢٤) ينظر : المصدر نفسه ، ٢٢٣ وما بعدها .

(٢٥) أساس البلاغة ، مادة (جزم) : ٩٢ .

(٢٦) القاموس المحيط ، مادة (جزم) : ٢١٥ .

(٢٧) رسالة الحدود النحوية : ٢٢٥ .

(٢٨) لسان العرب ، مادة (جزم) : مج (٢) / ١٢٤ .

(٢٩) أساس البلاغة ، مادة (ظرف) : ١–٤ .

(٣٠) لسان العرب ، مادة (ظرف) : مج (٦) /١٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، مادة (ظرف) : مج٦/١٢ ، وينظر : القاموس المحيط : ٨٢٤ .

(٣٢) رسالة الحدود النحوية : ٢٢٨ .

(٣٣) لسان العرب . مادة (ظرف) : مج٦/١٣ .

(٣٤) مفردات ألفاظ القرآن ، مادة (عطف) : ٥٧٢ .

(٣٥) أساس البلاغة ، مادة (عطف) : ٤٢٦ .

(٣٦) لسان العرب ، مادة (عطف) : مج٦/٣١٢–٣١٣ .

(٣٧) القاموس المحيط ، مادة (عطف) : ٨٨٥ .

(٣٨) رسالة الحدود النحوية : ٢٢٩ .

([٣٩]) ينظر : بحوث مصطلحية ، ٩ .

المصادر :

١. أساس البلاغة ، ابن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، دار صادر ، بيروت، ط (١)، ١٩٩٢م .
٢. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، د.محمود فهمي حجازي ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، (د.ت) .
٣. بحوث مصطلحية ، د.أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي ، ٢٠٠٦م .
٤. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تح : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
٥. دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة : كمال بشر ، دار غريب ، القاهرة ، ط (٢) ، ١٩٩٧م .
٦. رسالة الحدود النحوية ، ابن الجبراني (ت ٦٢٨هـ) ، دراسة وتحقيق : زاهدة عبد الله محمد ، كلية التربية ، جامعة الموصل ، مجلة التربية والعلم ، مج (١٢) ، العدد (٣) ، لسنة ٢٠٠٥م .
٧. علم الدلالة ، دراسة نظرية وتطبيقية ، د.فريد عوض حيدر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .
٨. علم المصطلح ، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية ، د.علي القاسمي ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط (١) ، ٢٠٠٨م .
٩. علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية ، د.ممدوح محمد خسارة ، دار الفكرة ، دمشق ، ط (١) ، ٢٠٠٨م .
١٠. القاموس المحيط ، الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط (٢) ، ٢٠٠٧م .
١١. لسان العرب ، ابن منظور (ت ٧١١هـ) ، مراجعة وتصحيح : نخبة من الأساتذة المتخصصين ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .
١٢. مباحث تأسيسية في اللسانيات ، عبد السلام المسدي ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، ١٩٩٧م .
١٣. المصطلح النحوي في دراسات المحدثين ، أحمد خليل حبيب زنكنه ، دكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة ديالى ، ٢٠١٥م .
١٤. مفاتيح العلوم ، الخوارزمي (ت ٣٨٠هـ) ، تقديم : د.جودت فخر الدين ، دار المناهل للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط (١) ، ١٩٩١م .
١٥. مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ) ، تح : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم – دمشق ، الدار الشامية – بيروت ، ط٥ ، ٢٠١١م .
١٦. نسقية التوليد الدلالي ، رائد فريد طافش ، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج (٣٥) ، العدد (٣) ، ٢٠٠٨م .